خطبة صلاة الجمعة 1/ 1/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(توعية)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11، 12].

الأذن الواعية هي أُذُنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظُ ما سمعَتْ، وتفكر فيه وتعمل بموجبه.

وقال أذن واعية بالتوحيد والتنكير، ولم يقل وتعيها الآذان الواعية، للإيذان بأن الوعاة قلة، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواه لا يلتفت إليهم، وإن امتلأ العالم منهم. كما قاله الرازي في تفسيره.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

أيها الإخوة:

هذه سلسلة جديدة من الخطب نبدأها مع بداية العام الجديد عنوانها **(توعية)**، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحةً مرة لنعمم خيرها وننشر فضلها، وخاطئةً أو مخطئةً مرة لنَحْذَر شرها ونترك فعلَها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به، ويحب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم ويتزينوا بالفهم ويتجملوا بالحكمة ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والتذكر والوعي.

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 269] ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 79] ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176] ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82] ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 80].

وعلى الطرف الآخر لا يحب الإسلام مخالطة الجاهلين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63] ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55] ولا صحبة السفهاء والمغفلين، بل إن القرآن يجعل السفه صفة المنافقين والكافرين ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13] ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142].

بينما يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالعلم والحكمة والفهم والوعي – فيما رواه أبو نعيم في الحلية– يقول: «**علماء حكماء فقهاء... كادوا أن يكونوا أنبياء**».

أخرج الحافظ ابن منده بإسناده عن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «**ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم ولا يفقهونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما لأقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون، والذي نفسي بيده ليفعلُن ذلك أو لأعاجلنهم العقوبة**».

فالمسلم مطالب بتفهم الأمور والتفكير بها وبعواقبها، ومطلوب منه توعيةُ غيره وتعليمه.

اتصل رجل بشاب صالح يطلب لقاءه لأمر مهم، فواعده في مكان معين، فلما اجتمعا أخبره أنه قادم إليه بأمر مهم جداً وخاص جداً وذي حساسية عالية، أخبره أن شيخه الذي يحبه هذا الشاب ويتتلمذ عليه في ضائقة مالية وأنه محتاج لمبلغ مالي يسدد به فاتورة عملية جراحيةٍ لزوجته الموجودة الآن في مشفى خاص، وأن الشيخ لا يستطيع البوح لطلابه بحاجته وأن هذا الرجل علم بالأمر بطريق غير مباشر، وأنه يجمع للشيخ ليقضي حاجته ويبرئ ذمته.

فما كان من هذا الشاب المحب لشيخه إلا أن بادر – محبةً في الشيخ وطلباً للثواب من الله – فعاد إلى بيته واقترض من أهله وأرحامه ما يستطيع وذهب لهذا الرجل ليعطيه المبلغ، منتظراً خبراً ساراً عن

قضاء حاجة الشيخ وشفاء مريضه، لكنه تفاجأ بعد أيام عندما علم بطريقة غير مباشرة أن زوجة شيخه متوفاةٌ منذ أعوام عديدة وأن الشيخ كان الأسبوع الماضي في سفر خارج البلد.

هنا علم أن الرجل خدعه واختلس ماله.

كان يفيد هذا الشاب أن يتمهل الرجل يوماً أو أكثر ليسأل أناساً مقربين من الشيخ عن المسألة أو أن يسأل الشيخ نفسه.

أو كان يفيده أن يأخذ من الرجل اسم المشفى ليراجع قسم المحاسبة ويستبين الأمر.

أو كان يفيده أن يسأل الرجل عن علاقته بالشيخ وعن سبب تواصله مع هذا الشاب بعينه دون غيره وعن طريقة حصوله عن رقم الشاب.

أخرج الطبراني بسند ضعيف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**احترسوا من الناس بسوء الظن**».

اتصلت فتاة لتسأل عن صحة عقد زواجها قالت:

إن شاباً بقي يلاحقها بين بيتها وجامعتها أسابيعَ ثم طلب التعرف عليها لأنه يريد خطبتها على سنة الله ورسوله فاطمأنت له وبدأت تحادثه وأعطته رقم هاتفها وطرق التواصل معها، ومرت عليهما الأيام وعلق قلبها به، وكلما سألته عن الوقت الذي سيقرع مع أهله باب أهلها لطلبها زوجة كان يتعلل بموت قريب أو سفر ذي رحم أو انشغالٍ كبير.

واقترح عليها أن يعقدا بينهما عقداً مبدئياً ثم إذا حان الوقت المناسب جاء بأهله ليكون العقد الكبير، ورضيت الساذجة فدعاها إلى فندق رخيص ومضت معه، وقال لها زوجيني نفسك على سنة الله ورسوله فسألته عن الشهود فأخبرها بخبثه أن الملائكة تشهد على العقد، فأجابته أنها موافقة على الزواج به.

فأخذ منا ما أراد وتركها ومضى.

اتصلت بعد أشهر من غيابه لتسأل هل عقد زواجها صحيح!.

كان يحمي هذه الفتاة من شر الذئاب لو انضبطت بأحكام الشريعة فلم تسمح لنفسها أن تغدو وتروح مع شاب غريب وأن تضاحك وتمازح رجلاً لا عقد بينه وبينها.

وكان يحميها لو علمت أحكام الشريعة والقانون في أن عقد الزواج يحتاج إلى عاقدين وشاهدين من البشر لا من الجن ولا من الملائكة، ومن البشر العدول المعروفين بالخير والصلاح لا من الفسقة

الماجنين، وأن عقد الزواج يحتاج عند جماهير العلماء إلى ولي الفتاة من أب، أو جد عند فقد الأب، أو أخ، أو عم، أو القاضي عند فقد جميع الأولياء، ويحتاج العقد إلى صيغة.

كان يحمي هذه الفتاة لو اتبعت الأعراف الجيدة المرعية في أن خاطب البنت عندنا يقرع باب أهلها ويأتي مع أوجه رجال عائلته ليطلبوها من وليها زوجةً ونبرم لهما عقد الزواج، لا أن يتسور الجدران كاللص وينفرد بها كالسارق ويمضغها لقمة سائغة ويرميها خرقة بالية.

أخرج الإمام أبو داود وأحمد والبزار وغيرهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«لا نكاح إلا بولي، وشاهدي عدل، والسلطان ولي من لا ولي له»**.

أيها الإخوة:

الحياة الناجحة تقوم على الفكر المليح والوعي الصحيح، والغباء في ديننا معصية.

وإليكم أربع طرق يزيد بها المرء وعيه أختم بها الخطبة:

القراءة والتجربة واليقظة والصحبة.

أما القراءة: فإنها تفيدك عقلاً وتطلعك على تجارب الآخرين وأفكارهم وعلومهم.

اقرأ مثلاً في سير العلماء والكبراء، اقرأ في كتب الأذكياء واطلع على مَن كتب عن الحمقى والمغفلين.

خذ مثلاً كتاب الأذكياء لأبي الفرج ابن الجوزي فقد تكلم فيه عن فضل العقل وماهيته ومحله، وعن والفهم والذكاء، وعن العلامات التي يستدل بها على ذكاء الذكي، وعرض لقصص عن ذكاء الصحابة والعلماء والأمراء والوزراء والأمراء والحجاب والقضاة والنساء.

وذكر قصصاً لمن استخدم ذكاءه لبلوغ غرض، ومن وقع في آفة فتخلص بذكائه وحيلته، وعقد باباً للأجوبة المسكتة.

فمما ذكره في ذكاء القضاة مثلاً قال أخبرنا مجالد عن الشعبي قال شهدت شريحاً القاضي وجاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها فبكت فقلت: يا أبا أمية ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة! فقال: يا شعبي إن أخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون!.

وأما **التجربة:** فكل شيء يحتاج إلى العقل والعقل محتاج إلى التجربة ولا حكيم إلا ذو تجربة، والرجل الذي صقلته الحياة ومرسته التجربة هو الرجل الحكيم الواعي، ولكن لا ينبغي تجربة المجرب، فمن جرب المجرب فعقله مخرب ولكن يجرب المرء مالم يعرف بالنظر إليه فائدته ولم يستطع غيره تجربته.

ألم ترَ أنّ العقلَ زينٌ لأهلِه ولكنْ تمامُ العقلِ طولُ التجاربِ

وأما **اليقظة**: فالمراد بها التفكر والتنبه والتفطن لما يجري معك أو مع غيرك ومقايسة الأمور بعضها ببعض، وربط النتائج بأسبابها، والنظائر بأشباهها.

وأما **الصحبة**: فالمراد صحبة الحكماء أهل الوعي لتأخذ عنهم وتتدرب على أيديهم، قال المنصور للمهدي: يا أبا عبد الله لا تجلس مجلساً إلا ومعك فيه رجل من أهل العلم يحدثك.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أحيي عقلك بعلم العلماء والأشراف وأهل التجارب والمروءات.

يطيبُ العيشُ أن تلقى حكيماً غذاه العلمُ والنظرُ المصيبُ

فيكشفُ عنكَ حيرةَ كلِّ جهلٍ وفضلُ العلمِ يعرفُه الأريبُ

واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل فالصاحب يعدي والأحمق يردي.

قال الحسن البصري: صلة العاقل إقامة لدين الله وهجران الأحمق قربة إلى الله.

وبعد أيها الإخوة:

حاجة الأمة والأفراد إلى الوعي كبيرة، في الأوقات عامة وفي الأزمات خاصة، فالوعي يزيد بالقراءة والتجربة واليقظة والصحبة، وينقص بأضدادها.

والحمد لله رب العالمين